الرغبة في الهزيمة

عبد الجواد عمر

لم يعد إنتاج الجديد، أو تحقيق الإتقان في مسالك النقد التي يديرها المثقف العربي، محور السؤال. لقد بات استهلاك خطاب الهزيمة وإعادة إنتاج بنى انسداد الأفق ممارسة مكرَّسة، تتوالد ذاتياً في متواليات لا نهائية، حيث يصبح الشأن السياسي مشدوداً إلى اشتراطاته الخطابية أكثر منه إلى ديناميات الفعل ذاته، وهي اشتراطات تتراوح بين الهزيمة كأيديولوجيا، والهزيمة كأسطورة، والهزيمة كبنية. لكن، إذا كان النقد قد ارتكز ليصبح أداة لإعادة إنتاج الهزيمة بدلاً من تفكيكها، فإن الهزيمة لم تعد معطى ولا محطة، بل غدت منظومة دلالية تشتغل كأفق إدراكي مغلق، حيث يعاد تدوير النقيض داخل حدوده، ولا يعود الاختلاف إلا تكراراً مؤطَّراً في معادلة الاستحالة. فالزمن، في هذا الفراغ التاريخي، لا يعود مساراً، بل يتحول إلى حيِّز ممتد، حيث يصبح المستقبل استدعاءً متكرراً لما قد حدث، ويتحوَّل العار إلى بنية معيشة تسقط عن التداول الرمزي، لا ليغدو الجرح أثراً لماضٍ يمكن تجاوزه، وإنما امتداداً زمنياً يعيد إنتاج نفسه ضمن فضاء تتماهى فيه النهايات مع البدايات، لا بوصفها ديناميكية صراعية، بل كإعادة تشغيل دائمة لمنطق الفقد والانتظار.

بهذا المعنى، فإن استدعاء "الهزيمة" في الخطاب النقدي، تلك الدعوة المتكررة إلى مواجهتها والنظر في عينيها، لم يعد سوى إعادة تشغيل لآلية تفكيك أضحت جزءاً من بنية الإخضاع ذاتها. لقد انتشرت هذه الدعوة في أوساط العديد من المثقفين، لا بوصفها تفكيكاً، بل تكراراً محكوماً بإرادة وحشية انكشفت مع إعادة تشكيل دولة الاحتلال لقدرتها التدميرية، وقدرتها على الجمع بين الاستخبارات والاختراق، وتحقيق نجاحات في استهداف المقاومة، خاصة في المواجهة مع لبنان. لم تعد المسألة هنا مواجهة واقع، بل توطيداً لهذا الواقع بوصفه المآل الوحيد الممكن. وهكذا، فقد تلاشت الإيديولوجيات القديمة للانتصار التي هيمنت في زمن سابق، كما في نموذج مصر ومنظِّريها، حيث تحوَّلت خطابات الهزيمة من موقف نقدي يسائل التفاوت، إلى أفق مغلق يستعيد ذاته دون إمكان للانفلات، حتى حين يتكئ على أطروحات كأطروحة صادق جلال العظم في **النقد الذاتي بعد الهزيمة** التي سعت إلى إحالة الهزيمة إلى معطى ثقافي يمكن تفكيكه، لكنها انتهت إلى تأبيده كبنية تفكير. فإذا كان النصر الواهم أو الصدمة بالهزيمة وحدوثها، أساساً لنقاشات ما بعد النكسة، فإن القتال السياسي والفكري اليوم يدور في فلك التأكيد على انغلاق الزمن.

وفي هذا التساوي الذي تنسجه الهزيمة، بوصفها حالة تضرب بنية القيم وأسسها، أي حالة تجعل من القيم صفرية، ما يُمأسس لعقلانية تنشد ذاتها داخل عجزها، بحيث لا تظل مجرد موقف معرفي إزاء العدو، بل تتحوَّل إلى واقع معيش، إلى حسٍّ سليم يُنظِّم الإدراك، إلى بنية تحتية تعيد إنتاج ذاتها

كضرورة سياسية. وفي هذا التشكُّل، لا تصبح تلك القناعة مجرد لحظة عابرة، بل تتسلل إلى أفق اللاوعي السياسي، حيث يتمُّ تحصينها بطبقات من التبرير الذي يمضي إلى ما هو أبعد من الخوف، إلى شبه طمأنينة خفية تُسبِّح سراً بوجودها، بينما تلعنها في العلن. أليست هذه، تحديداً، علاقة الكثرة البشرية بالسلطة القائمة في الضفة الغربية؟ هنا، يتحوَّل العجز إلى إطار تأويلي مُؤمْنَن، فتغنِّي الكثرة ليلاً لعجزها، ومن ثم تلعنه صباحاً كي تُبقي على وهم الالتزام السياسي حياً، وهم أنها ما زالت تغني للوطن. لكنها، في اللحظة نفسها، تسبِّح بالحمد والثناء على نعمة الهزيمة والمراوحة فيها، لأنها ضمان لاستقرار لم يتحقق قط، ولحياة لا تُعاش إلا كامتداد زمني خامل، بلا مستقبل سوى ما يعيد إنتاج الحاضر ذاته.

إن الهزيمة، كما في الرؤى الكابوسية لفالتر بنيامين في **أطروحات حول التاريخ**، لا تأتي في هيئة كارثة مستقبلية يمكن تجنُّبها، بل باعتبارها حطاماً يتراكم خلفنا، مكدِّساً أجساداً وأوهاماً وأسئلةً لم تُجب. في هذا الركام، حيث يعجز الفارق بين الحق والباطل عن إثبات وجوده، تسقط الأسماء، وتفقد الكلمات معانيها، ويصير الصمت هو القاضي الوحيد. هنا، في فضاء الإخضاع والتكرار، يكون الأمل تهمة، والتشاؤم يقيناً، والانتصار مجرد احتمال يسير في شوارع مغلقة، لا منافذ فيها تفضي إلا إلى داخلها.

واستناداً إلى ذلك، يصبح القديس مثل المارق، كما يعلن سميح القاسم في قصيدته "تعالي لنرسم معاً قوس قزح"، لأن كليهما مسلوب القدرة على الفعل، وكأن القيم كلها قد دخلت في حالة من التعادل التام، حيث تفقد الأشياء أوزانها، وتستوي الخيانة مع الوفاء، والصمود مع الاستسلام، والمقاوم مع من يحارب المقاومة. لهذا، عندما نزل القاسم في مطلع قصيدته مستخدماً السلَّم إلى قاع الحزن الذي تستوي فيه الأشياء حيث لا نور يعلِّم الفوارق، فهو نقد غرق في البكاء كحالة شعورية يمتزج فيه الواقع الذي يصرع النفس مع التحوُّل الجسدي الذي يحبس العينين، فيقتل النظر، ومن ثم يباغت الرؤيا، تلك الصور التي تحتل مساحة واسعة مما يمكن أن نطلق عليها "الاحتمالات" أو الإمكانات.

يحدث ذلك لأن الهزيمة هنا ليست لحظة عابرة، بل هي زمن معلَّق، حيث لا انحدار نحو الأسفل، ولا صعود نحو الأعلى، بل هناك ركود يحوِّل الإنسان إلى صورة لنفسه، منعكسةً في مرآة التاريخ المشروخة، صورة معلَّقة لا تتغير ولا تبغي التحوُّل. وكما أن الملائكة في لوحات بول كُلِي ليست كائنات نورانية، بل كائنات محاصرة في عواصف من الركام، فكذلك هو المثقف العربي، لا يتحرَّك إلا ليجد نفسه يعود إلى الموضع نفسه، وكأنه يسير في متاهة بلا مخرج، ولا بداية، ولا نهاية.

نحن هنا إزاء تحوير جذري في وظيفة النقد، من نقد ينخرط في مساءلة إشكاليات المواجهة وسرديَّاتها (حتى وإن كان نقداً ثقافوياً أو دينياً أو سياسياً، وحتى لو كان في زمن آخر يسعى إلى تجاوز الهزيمة عبر الاعتراف بها) إلى نقد يعيد تنصيب الهزيمة كمآل نهائي، حيث ينغلق التاريخ على نفسه، لا بوصفه حقلاً للصراع وإنتاج الممكنات، بل كآلية إزاحة متعمدة لعبء الفعل السياسي، واستبعاد مُمنهَج لإمكانات الأمل التي كان يمكن أن تُستولد من هذا الفعل.

إنها، إذن، ليست حرباً تُدرَك كحدث يمكن تحديده بزمن، بل كتحوُّل في الحدث ذاته، حيث تنزلق بين الضرورة والصدفة، بين الحدث المحكوم بتراكم عقلاني والانفجار العاطفي الذي لا يحمل من منطقه

سوى لحظة تدفقه. غير أن غالبية التحليلات التي تناولت الحرب تقع في فخ هذه الثنائية المبسَّطة، حيث يتم تأطيرها إما كحتمية استراتيجية أو كنتاج عشوائي لمجموعة ظروف طارئة دون الالتفات إلى الحرب بوصفها ظاهرة قائمة بذاتها، تمتلك تاريخيَّتها الخاصة ومنطقها الداخلي الذي يتجاوز مجرد التبرير الثقافي أو التسويغ السياسي. إن فهم الحرب لا يكتمل عبر اختزالها في قرار واعٍ أو في انفعال غير محسوب، بل يتطلب استيعاباً لطبيعتها كحالة دائمة التشكُّل، وكحقل تتقاطع فيه إرادات متباينة، حيث تصبح الحرب نفسها فاعلاً يعيد إنتاج منطقها في كل مرة تخاض فيها.

في هذا السياق، تبدو الحرب، كما تتبدَّى عند حسين البرغوثي في **الصوت الآخر**، لا بوصفها تسمية أو حالة قابلة للتموضع، بل كفيض يشتِّت ذاته، وإلهام مفتوح على اللا-يقين، وارتجال في صيرورة لا تعرف الاكتمال. ولكن، إذا كان خطاب اليوم يميل إلى إسقاط مفهوم "الحرب" من التداول، واستبداله بمفهوم "الإبادة" بوصفها التسمية المطلقة، فليس هذا إلا إعلاناً ضمنياً عن رؤية تُقصي كل إرادة مقاومة، وتُقصي الفلسطيني ذاته من معادلة الفعل والتاريخ. إن تسمية الإبادة في هذا السياق لا تُشير إلى مجرد توصيف لواقع من المجازر، بل إلى تصوُّر يلغي الفلسطيني كمقاتل، ويجرده من إرادته، ويحوِّله إلى كيان لا يُفكِّر إلا بوصفه ضحية، وبلا قدرة على الفعل، وبلا حق في الاشتباك، وبلا تاريخ إلا في ظل عدوه. إنها لغة لا ترى فاعلاً إلا العدو، ولا قارئاً للتاريخ سواه، ولا ذاكرة إلا في حضوره، ولا تقنيات إلا تلك التي تنتصر بالمجزرة ولا إرادة تستنجد بالسماء، ولا إرادة تقاتل. هكذا يُقال لنا اليوم، أي أن نُسقط الحرب من حيز التداول، وأن نكفَّ عن استدعاء "الإرادة" وأن نتعلم أن الإبادة هي المظلة التجريدية التي يمكن أن تُفسِّر كل شيء، دون الحاجة إلى قراءة الواقع في تعقيداته، أو الاعتراف بأن الحرب ليست مجرد ما يُمارَس علينا، بل ما نمارسه نحن أيضاً حين نقرر "أن نكون."

الإبادة هنا ليست مجرد استراتيجية خطابية يمكن إدراجها تحت شعار "تمسكن حتى تتمكَّن"، ولا حتى تسمية قانونية أو إعلامية تهدف إلى عزل العدو ووسمه، بل هي أيضاً تعبير عن احتقار ضمني للمقاوم— ذلك الذي يطلق النار، والذي يشرف على سير عمل المستشفى، والذي يُحضِّر الدواء لوالدته، وذلك الذي أصرَّ على العودة إلى الشمال أو البقاء فيه، فجميعهم مقاومو الضرورة، تماماً كما أن قرار الحرب هو ذاته قرار الضرورة. إن اختزال المشهد في "إبادة" لا يفضي إلى كشف حقيقة العنف وتجريد المقاوم من إرادته وإعادة تعريفه كضحية وحسب، بل إنه يفضي إلى محو الفعل الفلسطيني، بحيث لا يكون لهذا الفعل أي موقع داخل المعادلة السياسية أو التاريخية. في هذا الإطار، يصبح جميع من يقاتل، ومن يداوي الجرحى، ومن يصرُّ على البقاء... خارج السردية، إذ لا مكان لهم إلا كأجساد تنتظر الفناء أو النجاة، لا كفاعلين في حرب يخوضونها بوعي الضرورة، ولا كمن يقررون مصيرهم في الزمن المفتوح على أكثر من احتمال. هنا، تأتي الهزيمة، وقد اتخذت لنفسها موقعاً سابقاً على الطلقات، تعيد الحرب إلى مرساها الأصلي، أي إلى بنيتها ذاتها، فتغدو الحرب مشروطة بأفق سرديٍّ سبق أن قرر مصيرها، حيث لا تتحقق إلا ضمن دائرة محددة سلفاً، تستولد ذاتها كحتمية، لا تنفتح على الممكن، بل تستنسخه كقدر لا انفكاك منه.

في هذا الأفق، حيث تُكتب النهاية قبل أن تُعاش البداية، يكون العلم الأبيض حاضراً قبل أن تشتعل الأسلحة، حيث لا تنتظر البنادق طويلاً لتطلق احمرار الرصاص، كأنما تمضي الحرب إلى مصيرها المحسوم، مُجرَّدة من احتمالاتها، ومؤطَّرة داخل سردية لا تتيح إلا تأكيد ذاتها، لا الخروج منها.

سيقول قائل: ولكن في هذه السرديات حرب نفسية تخوضها، بوعي أو من دونه، أبواق الاحتلال، ومنها أيضاً من يعمل كطبقة وسيطة تحرس الهزيمة كما تحرس المحتل، وتهيِّئ له بنيته الرمزية كي تستمر، لا بوصفها قهراً سياسياً فحسب، بل كأفق نفسي ومعرفي يمأسس اللا-إمكان ويحوِّله إلى واقع بديهي. وهذا صحيح، لكن السؤال الحاضر هنا ليس عن الفاعلين، بل عن المتلقِّين: لماذا نبلعها؟ لماذا تستطيع هذه الكلمات، المتراصة في بنية خطابية تعيد إنتاج ذاتها، أن تتغلغل فينا، لا كحكاية تروى، بل كواقع يعاش، وكحقيقة تفرض علينا حتى قبل أن تعلن الحرب نهايتها؟

لن تعجبكم الإجابة هنا، لكنها تفرض نفسها على الرغم من ذلك. هنا، أجدني مضطراً لقول ما قد يبدو جذرياً، وربما مبالغاً فيه أيضاً: نحن لسنا قضاة نحكم بين مُدَّعٍ ومدَّعى عليه، ولسنا وسطاً عدلياً يفصل بين قطبين متنازعين، فالهزيمة والنصر ليسا حدَّين متقابلين في معادلة تحسمها الأدلة والبراهين. بل، في جوهر الأمر، نحن نرغب بالهزيمة. ليس لأننا مفتونون بها، ولا لأننا نُقدِّس الانكسار بوصفه قدراً ميتافيزيقياً، بل لأن الهزيمة، في تكرارها، تحوَّلت من حدث عارض إلى بنية مستدامة، ومن عثرة تاريخية إلى نظام رمزي، ومن حالة طارئة إلى أفق معرفي وسياسي ونفسي يعيد إنتاج ذاته في وعينا، حتى أصبح التمرد عليه ضرباً من المستحيل، والمراهنة على تجاوزه قفزاً في فراغ لا أرض له ولا أرضية.

في الضفة الغربية، تحوَّلت الهزيمة إلى أيديولوجيا، وقُلِبَت المعادلة من قداسة المقاوم إلى "قداسة التنسيق الأمني" حيث باتت البيروقراطية الأمنية هي الإطار المهيمن الذي يعيد إنتاج الاستسلام بوصفه حتمية سياسية. وفي كتابات المثقف، لم تعد الهزيمة حدثاً، بل صارت "نكبة مستمرة"، إذ تتداخل البنية والكوارث في وحدة متكررة، لا كشرط تاريخي للتحرر، بل كأساس لفهم الذات والعالم. أما في أحاديث المثقفين اليوم، ومن خلال عمليات "استطلال" انتقائية، تتحوَّل بعض "الحقائق" — مثل القدرة التدميرية للعدو، واستمرار المجزرة، والمقتلة الدائمة—إلى أسطورة جديدة، تُرسَم فيها صورة الهزيمة لا بوصفها وضعاً يمكن مقاومته، بل كإطار نهائي لفهم الواقع، وكحتمية لا يمكن الفكاك منها، إلا باعتبارها الأصل، والنصر هو الاستثناء العابر. بمعنى آخر، أصبحت الهزيمة العين التي نرى بها، أو القصة التي نكتبها أو نسردها، أو البنية التي تنتجنا كذوات.

لهذا، عندما يدخل بعض "المغامرين" الحرب، يفزع الكثيرون من مجرد التفكير في خوضها، لا لأن الحرب تعني الموت، أو الدمار، أو الركام—فهذا كله ممكن ومحتمل—بل لأن الحرب، في احتمالاتها غير المتحكَّم بها، قد تؤدي إلى ما يدَّعون أنهم يرغبون فيه: الانتصار. في الحقيقة، ما يؤرقهم هو الانتصار ذاته، لأنه يجبرهم على مواجهة سؤال ما بعد الهزيمة، لا كأفق مسدود، بل كمساحة لم يكونوا قد أعدُّوا أنفسهم لها. فقد كانت الهزيمة دائما هناك، جاهزة كمفردة، وكموقف، وكنظرية، وكهوية تقبل التأويل والتبرير، لكنها لا تفرض أي التزام أو مسؤولية تجاه ما بعدها. فكيف يمكن لهم أن يقفوا أمام نصر لم يجهِّزوا له إلا بوصفه مستحيلاً؟

وبينما يجعلنا هاجس التحرر والخوف منه في آنٍ واحد ننقلب على احتمالات النصر، فإن هذه الرغبة في الهزيمة تتجاوز مجرد الخوف من ألا نستقبل النصر، لتمتد إلى خوف أعمق: الخوف مما أصبحنا عليه. فكيف لنا أن نسامح أنفسنا على قرار استباق الانتصار بإعلان هزائمنا الصغرى، وتوقيع اتفاقيات

كنا نعلم أنه كان علينا تأجيلها (أوسلو مثالاً)؟ أو كيف نواجه حقيقة الانسحاب المتكرر من المعركة— انسحاب من انهاروا بعد النكبة، ومن لاذوا بالصمت بعد النكسة، ومن انكسروا بعد الاعتقال الأول، ومن لم يعبروا العتبة إلى الساحة أصلاً؟ كيف تواجه فتاة مقدسية قرارها بترك حبيبها الغزّاوي، أو تستوعب خطيبة الأسير قرارها بفسخ خطوبته، أو يتحمَّل المهزوم فكرة النصر في زمن أُغلقت فيه كل احتمالاته؟ وكيف يمكن لنا، بعد أن تشكَّلنا في قوالبهم، أن نحتمل أنفسنا؟ كيف نسامح أنفسنا على اقتتال داخلي، وقد كان الانتصار في متناول أيدينا؟

نحن لا نرغب في النصر، بل في إرجائه الدائم، لأن انتفاء الهزيمة يعني، من حيث لا ندري، مواجهة ذواتنا خارج القوالب التي تشكَّلنا فيها. الهزيمة ليست فشلاً سياسياً أو عسكرياً وحسب، بل هي بنية تسمح لنا بإدامة علاقتنا مع الفقد، تعيد التأكيد على خيارنا بالمراوحة وعدم الاندفاع بوجه التنين، حيث يصبح الاستمرار في حالة الهزيمة ضرباً من الحذر الوجودي، لا لتجنب الخسارة، بل لتجنب المجهول الذي قد يأتي مع النصر.

والأبعد من ذلك كله أن الهزيمة تمنحنا اليقين، كما تفعل الإبادة، وكما تفعل الأساطير والخطابات التي تعيد إنتاج جَلد الذات. فهي جميعها تمنحنا وضوحاً زائفاً للصورة، على الرغم من أن الحالة السياسية في فلسطين ما زالت تتأرجح بين الصمود والانكسار، وبين الموت الرمزي والتأكيد الرمزي، وبين النصر والهزيمة، أو تبقى في حالة اللا-تحديد، واللا-وجهة. بهذا، لا تصبح الهزيمة فقط ما نعانيه وحسب، بل ما نتمسك به كآخر معاقل الفهم، كإطار يمنحنا تفسيراً جاهزاً، حتى حين يكون هذا التفسير هو ذاته جزءاً من العطب. لهذا نرغب في الهزيمة. نرغب فيها لأنها تمنحنا الوضوح واليقين، ولأنها تحدد وجهتنا، حتى لو كانت تلك الوجهة، في النهاية، هي اللا-وجهة. نرغب بها لأنها صكُّ غفران تاريخي لكل شكل من أشكال انبثاقنا الذي ابتعد عن مهمة المواجهة، ولأنها تعيد ترسيم حدود المسؤولية، فتجعل الخيانة قدراً، والتراجع حكمة، والانكسار مآلاً لا يحتاج إلى مبرر.

هذا النص ليس إعلاناً عن انتصار، وليس تأكيداً للهزيمة، وليس حتى إثباتاً أن النقاش حولهما هو علامة التباس وعدم يقين، أو أن الحرب لم تُحسم بعد. إن ما يُقال هنا ليس بياناً، وليس محاولة لضبط حدود الممكن في معادلة النصر والهزيمة، بل هو تفكيك لموقع الهزيمة ذاته، كموقع يتجاوز كونه بنية خارجية، أو جداراً نرتطم به ونحن نحاول أن نتجاوز جميع الجدران، وهو أيضاً رغبة تخلَّقت بعد أن اعتدنا الفشل حتى أصبح ملازماً لنا. فالفشل في مستواه السياسي الداخلي، يتشكَّل كسؤال جوهري: كيف ينجح الإسلامي حيث فشل "الوطني" واليساري؟ ويا ويل السَّابقين من نجاح اللاحقين! وفي مستواه الأيديولوجي، يصبح تبجُّحاً بقداسة التنسيق الأمني: "أرأيتم ماذا يفعل المجانين بكم؟" والإحالة على المقاومين. وفي مستواه التحليلي، يغدو انتقائية في الحقائق تخلق أسطورة جديدة تعيد بناء نفسها تلقائياً—بطولة، أو هزيمة جديدة، وتراجيديا أخرى—أو يتحوَّل إلى تأكيد على حكم مسبق. وفي مستواه النفسي، يبقى رغبة، أي رغبة في اليقين